كتاب رسول الله إلى ملك الفرس

تم إرسال كتاب إلى ملك الفُرس مع عبد الله بن حذافة السـهمي، وكان نصه كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك". (الزرقاني والخميس)

قال عبد الله بن حذافة إنه حين بلغ بلاط كسرى، التمس تسليم الكتاب إلى الملك. وتسلم الملك الكتاب، وأمر المترجم أن يقرأ ما فيه وأن يشرح محتواه. وما أن سمع بالأمر حتى سخط، واستعاد الكتاب ومزّقه إربًا. وأبلغ عبد الله بن حذافة الرسول ﷺ بالخبر، وما أن سمع الرسول ﷺ القصة حتى قال: "مزّق الله ملكه".

كانت نوبة الغرور التي انتابت كسرى في هذه المناسبة نتيجة للدعاية المدمّرة التي كان يقوم بها اليهود ضد الإسلام، وهم أولئك الذين هاجروا من أراضي الدولة الرومانية إلى الأراضي الإيرانية. فقد ساهم هؤلاء اللاجئون اليهود في تدبير المكائد ضد الروم مدعومين من الفُرْس، وأصبحوا من أجل ذلك مقرّبين لدى البلاط الفارسي. لذلك، كان قلب الإمبراطور كسرى مليئًا بالحنق على الرسول ﷺ، وبدا له أن الروايات التي حملها إليه اليهود صحيحة، وقد أكّدها ذلك

الكتاب. وظن أن الرسول ﷺ كان مغامرًا عدوانيًا يحمل الشر نحو أرض فارس. فأرسل لفوره إلى حاكم اليمن يقول له إن واحدًا من قريش في الجزيرة العربية قد أعلن نفسه نبيًّا، وإن دعواه قد تجاوزت الحدود. وطلب من الحاكم أن يرسل إليه رجلين قويين ليقبضا على هذا القرشي، ويصحباه إلى البلاط الفارسي. وقام "باذان" الذي كان يحكم اليمن باسم كسرى، فأرسل أحد قواد جيشه في صحبة قوة راكبة إلى الرسول ﷺ، وأرسل معهم خطابًا يقول فيه للرسول ﷺ إنه يجب عليه حالما استلم الخطاب أن يرافق الرسولين لفوره حتى البلاط الفارسي. وكانت رحلة الشخصين قد قصدت مكة ولكنهما علما عند الطائف أن الرسول ﷺ يعيش في المدينة. وعند وصولهما إليها أخبر قائد الوفد رسول الله أن باذان حاكم اليمن قد تلقى أمرًا من كسرى أن يُعدّ عدّة للقبض على النبيّ وإحضاره إلى أرض فارس، وأنه لو رفض الطاعة فإنه هو وشعبه سيتم القضاء عليهم، وستتحول ديارهم إلى خراب يباب. وأصر الوفد اليمني دون أي شفقة أن يطيعهم الرسول ليقودوه إلى أرض فارس. واستمع الرسول ﷺ لهما ثم اقترح أن يلقياه في الغد. وخلال الليل دعا الله تعالى، فأخبره سبحانه بأن عجرفة كسرى قد كلفته حياته. وقال الوحي إن الله تعالى قد حرّك قلب ابن كسرى ضد أبيه، وسيقتل هذا الابن أباه في يوم الاثنين ١٠ جمادى الأولى من ذلك العام. وقالت رواية إن الوحي كان: "لقد قتل الابن الأب في نفس الليلة". ويحتمل أن تلك الليلة نفسها كانت ليلة ١٠ جمادى الأولى. وفي الصباح أرسل الرسول ﷺ إلى الوفد

اليمني وأبلغهما بما أُوحي إليه ليلاً، ثم زوّدهما بكتاب إلى باذان قال فيه إن كسرى سيتم قتله في يوم كذا من شهر كذا. وعندما تلقّى حاكم اليمن الرسالة قال: "لو كان هذا الرجل نبيًّا حقًّا فسيكون ما قال، وإن لم يكن فليساعده الرب هو وبلده كلها". ولم يمض قليل زمن حتى رسا قارب على شاطئ اليمن يحمل رسالة إلى حاكم اليمن من إمبراطور الفُرس، وكان يحمل خاتمًا مختلفًا عن خاتم كسرى، فاستنتج من ذلك أن نبوءة النبيّ العربي قد تحققت وثبتت صحتها، فالخاتم الجديد يعني ملكًا جديدًا. وفتح باذان الكتاب وقرأ ما يلي:

"من كسرى شيرويه إلى باذان حاكم اليمن، لقد قتلت أبي لأن حكمه أصبح فاسدًا وظالمًا، وعامل الرعية بوحشية. وعليه حالما يتلقى الرسالة أن يجمع قادته وأن يطلب إليهم توكيد ولائهم لي، وأما بالنسبة لما أمر به أبي من القبض على النبيّ العربي، فلتعتبر هذه الأوامر ملغاة". (الطبرى ج ٣ ص ١٥٧٢ – ١٥٧٤، وابن هشام ص ٤٦)

لقد بلغ من تأثر باذان بهذه الأحداث أنه آمن في الحال ومعه بعض أصدقائه، وأبلغوا الرسول ﷺ بذلك.

كتاب رسول الله إلى النجاشي

حمل عمرو بن أمية الضمري كتاب الرسول ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة، وكان كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أحمد إليك الله الذي

لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل. وقد بلّغت ونصحت، فاقبل نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى". (الزرقاني)

عندما وصل هذا الكتاب إلى النجاشي أظهر تقديرًا واحترامًا عظيمين له، ووضعه بين عينيه، ونزل عن عرشه ووضعه في حق من عاج وهو يقول: "طالما كان هذا الكتاب محفوظًا فإن الله سيحفظ ملكي". ولقد ثبت صدق قوله، فلألف سنة قادمة جرى المسلمون على غير عادتهم إزاء هذه المملكة، لقد ذهبت جيوشهم إلى كل اتجاه، ومروا بالحبشة على كل جانب، ولكنهم لم يمسوا مملكة النجاشي الصغيرة هذه. لقد انقسمت الإمبراطورية الرومانية، وفقد كسرَى مُلكه، واختفت ممالك في الهند والصين، ولكن هذه المملكة الصغيرة بقيَت مصونة لأن حاكمها استقبل اللاجئين المسلمين الأولين وشملهم بالحماية، وأظهر الاحترام والتبجيل لكتاب رسول الله إليه، وبهذه الطريقة ردّ المسلمون على الشهامة التي أبداها النجاشي.

قارن ذلك بالمعاملة التي لقيتها مملكة النجاشي المسيحية من أحد الشعوب المسيحية الأخرى باسم المدنية والحضارة في عصرنا هذا، لقد

دكوا مدنهم بالقنابل من الجو وحطموها، واضطرت العائلة المالكة إلى اللجوء خارج البلاد عدة سنوات.

لقد عومل نفس الشعب معاملتين مختلفتين من شعبين مختلفين، لقد حفظ المسلمون الحبشة مصونة وآمنة بسبب نخوة الشهامة لدى أحد حكامها، وهاجم شعب مسيحي أوربي هذا البلد وسلبه ونهبه تحت شعار الحضارة. وهذه المقارنة تُظهر إلى أيّ مدى تُثبت تعاليم الرسول ﷺ وقدوته أنها نافعة وراسخة التأثير.

لقد شعر المسلمون بالامتنان نحو مملكة مسيحية جعلت المسلمين في أمان معها، وقام شعب مسيحي طمّاع بالعدوان على هذه المملكة دون أن يبالي بأنها كانت بلدًا مسيحيًّا.

كتاب رسول الله إلى حاكم مصر (المقوقس)

حمل حاطب ابن أبي بلتعة كتاب الرسول ﷺ إلى المقوْقس، وكان نصه تمامًا كما كان كتابه إلى هرقل إمبراطور الروم. وبينما قال كتابه إلى إمبراطور الروم إن إثم إنكار الرومان سيتحمله هو على نفسه، فإن كتابه إلى المقوقس قال إن إثم إنكار القبط سيقع على المقوقس الحاكم، وكان الكتاب كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم القبط. ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

أَنْ لا نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾". (السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٧٥)

عندما وصل حاطب إلى مصر، لم يجد المقوقس في العاصمة، فتبعه إلى الإسكندرية حيث كان له بلاط قريب من البحر. ذهب حاطب على قارب، وكان القصر مدجّجًا بالحرس، عند ذلك رفع حاطب يده بالكتاب على مسافة منهم وبدأ يصيح عاليًا، فأمر المقوقس أن يقرّبوه منه، وأمره أن يحضر الكتاب. وقرأ المقوقس الكتاب ثم قال: "لو كان هذا الرجل صادقًا فلم لم يستنْزل الهلاك على أعدائه"؟ فأجاب حاطب: "أنت تؤمن بالمسيح، ولقد أُسيئت معاملته على يد شعبه، ولكن هل دعا عليهم بالهلاك"؟ عند ذلك أعطى المقوقس إلى حاطب هدية وقال له: "لقد كانت كلمتك تمثيلاً حكيمًا من رجل حكيم أجاد في الإجابة على السؤال الموجّه إليه". عند ذلك أكمل حاطب حديثه: "إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فلا تستكبر، آمن برسول الله هذا، وبالله ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبيّ أدرك قومًا فهُم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه. وأنت ممن أدركه هذا الرسول، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به".

عندما سمع المقوقس ذلك أشار إلى أنه سمع تعاليم الإسلام، فوجد أن هذا النبيّ لا يأمر بإثم ولا ينهَى عن خير، وأنه بحث في أمره فلم

يجده بالساحر ولا بالكاهن، وأنه سمع ببعض نبوءاته التي تحققت. ثم أرسل يطلب حقًّا من عاج فوضع فيها الكتاب، وختمه ودفعه إلى خادمة عنده وأمرها بحفظه في مكان آمن. وكتب ردًّا على الرسول ﷺ حفظ التاريخ نصه وهو كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من المقوقس ملك القبط إلى محمد بن عبد الله، سلام عليك، وبعد. فلقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرتَ فيه وما تدعو إليه وقد علمتُ أن نبيًّا بقيَ وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمتُ رسولك وأعطيتُه ألف دينار وخمسًا من الخيل هدية، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، إحداهما مارية والأخرى سيرين. وأهديتك أيضًا عشرين ثوبًا من نسيج مصر من أحسن ما فيها، وأهديتك بغلة لتركبها والسلام عليك". (الزرقاني والطبري)

يتضح من هذا الخطاب أن المقوقس لم يعتنق الإسلام، رغم أنه تلقّى كتاب الرسول ﷺ إليه باحترام.

كتاب رسول الله إلى عظيم البحرين

وأرسل الرسول ﷺ أيضًا إلى عظيم البحرين المنذر بن ساوى التيمي، مع الصحابي العلاء بن الحضرمي. ولقد فقد التاريخ نَص هذا الكتاب، غير أنه عندما وصل الكتاب إلى هذا الزعيم دخل في الإسلام، وأرسل إلى الرسول ﷺ يقول إنه هو وكثير من أصدقائه قد قرروا الانضمام لصف الإسلام، وأن هناك البعض ممن قرروا أن يظلوا

خارجه على أية حال. وأضاف أن بأرضه يهودًا ومجوسًا، وسأله ماذا يفعل معهم؟؟

ورد الرسول ﷺ عليه في كتاب قائلاً:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد: فإني أذكّرك الله عز وجل، فإن من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنّ من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي. وإنّ رسلي قد أثنوا عليك خيرًا، وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية". (زاد المعاد)

وأرسل الرسول ﷺ كذلك إلى ملك عُمان، وزعيم اليمن، وملك غسّان، وسيد بني فهد، وهي قبيلة من اليمن، وسيد همدان، وهي قبيلة يمنية أخرى، وسيد قبيلة بني عليم، وسيد قبيلة الحضرمي، وأكثرهم أصبحوا مسلمين.

تدل هذه الرسائل على مدى اكتمال ثقة الرسول بالله ﷻ، وتدل أيضًا منذ البدايات الأولى على يقين الرسول ﷺ أنه لم يُرسَل لقوم معينين، بل للناس كافة في الأرض كلها. صحيح أن الرسائل استُقبلت بطرق مختلفة من طرف الذين خوطبوا بها، فبعضهم أسلم لفوْره والبعض عامل الكتب باحترام شديد ولكنه لم يقبل الإسلام، وبقي آخرون عاملوها بلطف عادي وآخرون أظهروا الاحتقار والغطرسة.

ولكن من الصحيح أيضًا، والتاريخ شاهد على ذلك، أن الذين تلقوا هذه الرسائل هم وشعوبهم قد لقوا نفس المصير الذي لقيَته الرسائل عندهم، وقد عاملهم الله بنفس معاملتهم لخطابات الرسول ﷺ.

سقوط خيبر

وكما سبق أن قلنا، فإن اليهود وخصوم الإسلام الآخرين كانوا الآن مشغولين جدًّا في استثارة القبائل ضد المسلمين، وقد تكوّنت لديهم دلائل مقنعة أن الجزيرة العربية لن تصمد طويلاً أمام تنامي قوة الإسلام، وأن قبائل العرب لم تعد قادرة على مهاجمة المدينة متحدة وفي وقت واحد. لذا لجأ اليهود إلى الكيْد مع القبائل المسيحية على جنوب جبهة إمبراطورية الروم، وفي نفس الوقت بدأوا يكتبون إلى إخوانهم في الدين في العراق ضد الرسول ﷺ. لقد التمسوا بالدأب على المراسلة الحاقدة الخبيثة أن يثيروا كسرى الفُرس ضد الإسلام، ولقد ثار كسرى فعلاً ضده نتيجة لمؤامراتهم وحيَلهم، حتى إنه أرسل إلى عامله على اليمن أن يلقي القبض على الرسول ﷺ.

ولقد بقي الرسول ﷺ آمنًا بسبب التدخل الإلهي والرحمة الإلهية، ولقيت خطة إمبراطور الفرس الخيبة والفشل. ومن البيّن الواضح أنه لولا العوْن الإلهي العظيم الذي رافق الرسول ﷺ خلال قيامه برسالته النبوية، لكانت حركة الإسلام الغضّة الناشئة خليقة أن يتم قصمها وتقويضها وهي في مهدها تحت ضغط العداء والكراهية والمعارضة من طرف أباطرة الروم والفرس. فعندما أصدر كسرى أمره بالقبض على

الرسول ﷺ، حدث عندئذ أن عُزل الإمبراطور ولقي مصرعه على يد ابنه قبل أن يأخذ التنفيذ مجراه، وتم إلغاء الأمر الصادر، وكان ذلك الإلغاء على يد حاكم مختلف، وأدّى التأثير المعجز لهذا الحدث على حاكم اليمن وقادته أن تحوّلت مقاطعة اليمن إلى جزء من إمبراطورية الإسلام.

ولا ننسى أن المكائد التي ظل اليهود يرسمون خططها في المدينة ضد المسلمين ومدينتهم، جعلت من الضروري إجلاءهم عنها، وإلا فقد كان تزايد زخم هذه المكائد مهدّدًا بوصولها لحد خطير، يؤدّي إلى سفك الدماء وتزايد أشكال العنف. لذلك فبعد عودة الرسول من الحديبية، انتظر خمسة أشهر ثم قرر إقصاءهم من خيبر، فقد كانت خيبر على مسافة قليلة من المدينة ومن هنا وجد اليهود أنه من السهل اليسير عليهم الاستمرار في الكيد والتآمر ضد المسلمين. ولهذا سار الرسول ﷺ إليهم في وقت ما من آب/أغسطس (٦٢٨ بعد الميلاد) ومعه ١٦٠٠ رجل، وكانت خيبر جيّدة التحصين كما أسلفنا حيث كانت تحيطها عدة أراض صخرية، على كل منها أقيم حصن صغير، ولم يكن من السهل على قوة صغيرة كتلك التي صاحبت الرسول ﷺ أن تفتح مكانًا كهذا. وبعد قتال محدود سقطت القوات الصغيرة المرصودة في ضواحي خيبر، ولكن اليهود قاموا بتجميع قواهم في المدينة الحصينة، وفشلت محاولات الهجوم عليهم. وتلقى الرسول ﷺ وحيًا في يوم من الأيام أنه تعالى سيفتح على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

وفي الصباح التالي أعلن الرسول ﷺ ذلك على المسلمين، ودعا بالراية السوداء وقال: "اليوم أعطي الراية لرجل يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله والمؤمنون، يفتح الله خيبر على يديه". وهكذا دعا الرسول ﷺ عليًّا ودفع إليه الراية. ولم ينتظر عليّ، بل قاد رجاله وهاجم قوات الحصن لفوره.

وبالرغم من أن اليهود قد جمعوا حشود قواتهم داخل هذا الحصن، فإن عليًّا وصحبه قاموا بفتح الحصن قبل حلول الظلام، وتم توقيع اتفاق السلام، وكانت الشروط هي أن يغادر خيبر كل اليهود وأزواجهم وأطفالهم، إلى مكان آخر بعيد عن المدينة. وأن كل ما يملكون قد صار مآله إلى أيدي المسلمين. وأن هذا العهد لا يحمي من أخفى شيئًا من ممتلكاته أو كنوزه، أو كذب على المسلمين بشأن مكانها، وسيتم عقابه لنقض الميثاق.

وخلال حصار خيبر، حدث أحداث ثلاثة لها أهمية خاصة، يدل واحد منها على آية من آيات الله، ويدل الاثنان الآخران على مدى رقي المستوى الروحي والخلقي لرسول الله.

كان الرسول ﷺ قد تزوج صفية بنت حُيي بن أخطب، وهي أرملة رجل يُسمى كنانة، وكان أبوها أحد زعماء خيبر. وبعد أن قُتل زوجها في معارك خيبر وانتهاء عدتها، أتى بها الرسول ﷺ فرأى على وجهها أثر صفعة، فسألها عنها. وردّت عليه قائلة إنها رأت قبل ذلك أن القمر وقع في حجرها، فذكرت ذلك لأمها، فلطمت وجهها وقالت إنك لتمدّين عنقك لأن تكوني زوجة لملك العرب، فلم يزل

الأثر في وجهها إلى أن تزوّجها رسول الله ﷺ (الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني).

كان القمر هو الشعار القومي للعرب، وسقوط القمر في الحضن يعني اتصالاً حميمًا مع ملك العرب، وانشقاق القمر وسقوطه إلى الأرض يعني انشقاق الدولة أو سقوطها. إن رؤيا السيدة صفية تدل على صدق الرسول ﷺ، وتدل على تفاعلات خاصة بهذه السيدة بشأن الإسلام في نفسها، وضد الاتجاه العام المتحامل لقومها والمتحيّز ضد النبي، وتدل على أن الله تعالى يوحي بأمور من المستقبل لعبده في المنام، وينال المؤمنون من هذه النعمة نصيبًا يفوق نصيب الكافرين. وكانت السيدة صفية يهودية حين رأت هذه الرؤيا، وحدث أن زوجها قُتل خلال حصار خيبر التي كانت عقابًا لليهود على خرقهم العهود. ووقعت السيدة صفية في الأسر، وعند توزيع الأسرى على الصحابة، وقعت السيدة صفية في سهم أحد الصحابة. ولما عرف أنها أرملة أحد الزعماء وابنة زعيم خيبر، وجد أن من التكريم لها أن تعيش في بيت الرسول، واختار الرسول ﷺ أن يكرمها بزواجها، فوافقت السيدة صفية. وبهذه الطريقة تحققت رؤياها.

أما الحادثتان الأخريان، ففي إحداهما، أن راعيًا أسلم قبل استسلام الحصن وكان يرعى غنمًا لأحد زعماء اليهود، وقال للرسول ﷺ بعد إسلامه إنه لا يستطيع العودة إلى أهله بعد الآن، وسأل: ماذا يفعل بالماعز وبالغنم التي هي لسيده العجوز؟، فأمره الرسول ﷺ أن يوجّه وجهها إلى خيبر ثم يدفعها إلى هناك ويدعها، والله سيهديها إلى

سيدها. وفعل الراعي كما سمع، وفعلاً بلغ القطيع الحصن، واستقبله الحراس. (ابن هشام، ج٢ ص ١٩١)

وتدل هذه الحادثة على جدّية تناول الرسول لقضية الحقوق الفردية والملكية، كما تدل على مدَى حرصه ﷺ على أن يؤدّي المؤتمن الأمانة إلى من ائتمنه عليها. ففي الحرب تؤول إلى المنتصر الممتلكات المادّية التي تنتمي للخاسر، ولكن صاحب الغنم المحارب لم يكن قد خسر بعد. فهل يمكن أن نرى شيئًا كهذا في عصرنا الحالي المسمى عصر التمدن والثقافة؟ هل حدث قط أن انسحب عدوّ خاسر فوُجدت في المتروكات خلفه كنوز أو ثروات كان المنتصر قد أعادها إلى مالكيها أثناء القتال؟ ففي هذه الحالة التي بين أيدينا، كانت الماعز والغنم مملوكة لأحد الذين يقاتلون المسلمين، وكان في عودة القطيع معنى إعطاء الفرصة للعدوّ للبقاء والمقاومة لعدة شهور مستخدمًا القطيع كغذاء، ولكن الرسول ﷺ سمح لها بالعودة ليغرس في تابعه الجديد روح الأمانة وضرورة أدائها.

وفي الحادثة الثالثة حاولت امرأة يهودية تسميم طعام الرسول، وسألت أصحابه عن الجزء المفضل لديه في الشاة، وقالوا لها إنه يفضل كتف الحمل أو الماعز. وقامت المرأة بذبح ماعز وشوَته على الصخر الحار، وخلطته بسم مميت، وخصّت بالسم قطع الكتف باعتبار أن الرسول ﷺ سيفضل الأكل منها.

كان الرسول ﷺ قد عاد لخيمته بعد أن أمّ المصلين في جماعة العشاء، فرأى هذه المرأة بجوار خيمته تنتظر، فسألها عما يمكنه أن يفعل

لأجلها. فقالت له: "بلى يا أبا القاسم. هل تقبل مني هدية"؟ فطلب الرسول ﷺ من أصحابه أن يأخذوا منها ما أحضرت. وعندما جلس الرسول ﷺ لتناول طعامه، كانت هذه الهدية المشوية من اللحم قد وُضعت أمامه. فنهس منها نهسة، وكذلك فعل البشر بن البراء بن معرور، ومد الصحابة الموجودون أيديهم إلى اللحم، فأوقفهم الرسول ﷺ قائلاً إنه يظن اللحم مسمومًا، وعندئذ قال بشر إنه يظن نفس الشيء، وإنه أراد أن يلقي باللحم بعيدًا ولكنه خشي إزعاج الرسول ﷺ. وقال: "لقد رأيتك تنهس نهسة ففعلت مثلك، ولكني سرعان ما تمنيت لو أنك لم تفعل أبدًا".

وبعد ذلك مرض بِشر، وفي بعض الروايات أنه مات في ذلك بعد فترة. وأرسل الرسول ﷺ يطلب المرأة وسألها عما إذا كانت قد سممت اللحم؟ فسألته كيف عرف ذلك؟ وكان الرسول ﷺ ممسكًا بقطعة من اللحم في يده، فقال لها: "لقد قالت لي يدي ذلك"، يعني أنه كان قادرًا على معرفة ذلك من طعمها، فاعترفت المرأة بما فعلت. فسألها الرسول ﷺ عما حملها على ذلك. فقالت: "إن قومي كانوا يقاتلونك، ولقد قُتل أقاربي في المعركة، فقررت وضع السم لك، وقلت لو كان كاذبًا فسوف يموت ونحيا في أمن، ولو كان صادقًا فسينجيه الله".

وعندما سمع الرسول ﷺ ذلك منها، غفر لها ما فعلت، رغم أنها كانت تستحق عقوبة الموت على هذه الفعلة (صحيح مسلم). كان الرسول ﷺ على استعداد للمغفرة في كل وقت، ولم يعاقب إلا عندما كان العقاب ضروريًا، عندما يهدد العفو بتمادي المجرم في إجرامه.

تحقق رؤيا رسول الله

في السنة السابعة للهجرة، وفي شهر فبراير/شباط ٦٢٩م على وجه التحديد، استعد الرسول ﷺ أن يذهب إلى مكة لطواف العمرة، وكان هذا ما تم الاتفاق عليه مع قادة مكة. وعندما حان وقت الرحيل، جمع ﷺ ٢٠٠٠ من أتباعه واتخذ معهم طريقه إلى مكة. وعندما بلغ مـــرّ الظهران حيث يحط الحجيج، أمر أصحابه أن يغمدوا أســـلحتهم، وأن يضعوا عنهم الدروع، حيث جمعت في مكان هناك. وحرصًا على دقة تنفيذ الميثاق الموقّع في الحديبية، دخل رسول الله وصحبه المنطقة الحرام وسيوفهم في أغمادها، كما ينص عليه اتفاق الحديبية.

لم يكن دخول مكة بعد مرور سبع سنوات من البعد عنـــها أمـــرًا عاديًّا لرسول الله وصحابته. لقد تذكروا العذاب الذي تعرّضوا له أيام كانوا في مكة، وفي نفس الوقت رأوا مدى فضل الله تعالى ورحمته بهم أن أعادهم إلى مكة ليطوفوا بالبيت العتيق في سلام. كـــان غضـــبهم يتساوَى مع سرورهم. وأما أهل مكة، فقد تركوا منازلهم وصعدوا إلى قمم الجبال ليروا المسلمين. كان الحماس يملأ المسلمين، وتفيض قلوبهم بهجة وفخرًا. ولقد أرادوا بحماسهم أن يقولوا لأهل مكة إن الله قـــد صدقهم الوعد. وبدأ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ينشد بعض أغاني الحرب الحماسية، لكن الرسول ﷺ منعه وأمره ألا يفعل ذلك، بل يقول: "لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحـــده". (السيرة الحلبية ج٣ ص ٧٣)

مكث الرسول ﷺ في مكة ثلاثة أيام بعد أن طاف بالكعبة وسعَى بين الصفا والمروة. وقد اقترح عليه عمه العباس أن يتزوّج شقيقة زوجه الأرملة واسمها ميمونة، فوافق الرسول ﷺ. وفي اليوم الرابع طلب أهل مكة انسحاب الرسول ﷺ وصحبه، فأمر رسول الله أصحابه بالانسحاب والتوجّه شطر المدينة. وقد التزم الرسول ﷺ بتنفيذ شروط الاتفاق التزامًا دقيقًا، وذلك بسبب عمق التزامه بأوامر الدين الذي يفرض عليه الوفاء بالعهود، ولحرصه البالغ على احترام مشاعر أهل مكة، وقد اضطره ذلك إلى ترك زوجه الجديدة السيدة ميمونة خلفه في مكة، ورتّب معها أن تلحق به مع مؤخرة القافلة التي تقوم بجمع الحاجيات الشخصية للمعتمرين بعد انسحابهم. وامتطى الرسول ﷺ ناقته وسرعان ما خرج من حدود المنطقة الحرام، وعسكر لقضاء الليل في مكان اسمه "سرف"، حيث لحقت به في خيمته السيدة ميمونة رضي الله عنها.

ولعله كان من الأوْلى إهمال ذكر هذه الحادثة وعدم إبراز تفاصيلها، خاصة وأننا نكتب لمحات مختصرة عن حياة الرسول ﷺ. ولكن للحادثة أهمية خاصة، وذلك بسبب الهجوم الذي يشنّه كُتّاب الغرب على الرسول ﷺ بسبب تعدّد زوجاته. فهم يتصوّرون أنّ التعدّد دليل على الضعف الشخصي وحب المتع الدنيوية. غير أن هذا التصوّر الخاطئ يكذّبه تمامًا إخلاص أزواجه له، وحبّهن الفائق لما يمثله، بشكل ملك عليهن أنفسهن.

إن هذا الحب والإخلاص يثبت أن حياة الرسول الزوجية كانت طاهرة ولا أنانية فيها، وكانت غنية بالمشاعر الروحية. ولقد كان أمرًا غريبًا وفريدًا أننا لا نجد رجلاً عامل زوجته الواحدة معاملة طيبة تقوم على المودّة والرحمة، كما عامل الرسول ﷺ زوجاته أجمعين.

ولو كانت مشاعر اللذة هي المحرك لحياته الزوجية، لوجدنا يقينًا أن أزواجه يختلفن معه ويعاندنه، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك، فقد كانت كل أزواجه في حالة ود وتوافق معه، وكان هذا الود نتيجة لعدم أنانيته وأسْوته الحسنه الرشيدة الراقية السلوك، وكان رد فعلهن إزاء عدم الأنانية والسموّ الذي يمثله محضره أنهن أعطينه حبًّا وإخلاصًا سخيًّا غير ضنين. وقد سجل التاريخ أحداثًا عديدة تدل على ذلك، وأحدها يختص بالسيدة ميمونة نفسها. فلقد دخلت عليه أول مرة في خيْمة وسط الصحراء، وما كان لها أن ترى في هذا اللقاء الأول ذكرى غالية عزيزة، لو كانت علاقتها الزوجية مع الرسول ﷺ تحمل أي طابع للخشونة، أو لو كان الرسول ﷺ يفضّل بعض أزواجه على بعض بسبب الجمال الجسدي، بل إنها ما كانت لتحفظ ذكرى ذلك اللقاء بود عميق واعتزاز بالغ. ولو أن ذكرياتها مع الرسول ﷺ كان يشوبها أيّ جفاء أو مرارة، لكان جديرًا بها أن تنسَى كل شيء حول هذا اللقاء. فقد عاشت طويلاً بعد الرسول ﷺ، وماتت بعد أن بلغت من العمر عتيًّا، ومع ذلك فلم تنس خلاله أبدًا ماذا كان يعني بالنسبة لها لقاؤها مع الرسول ﷺ. وعند موتها، بعد أن شارفت الثمانين من عمرها، وبعدما غابت ونُسيت جميع المباهج الجسدية، ولم يعد يحرك

القلب غير القيم العليا، ولا يؤثر في النفس والوجدان سوى الفضائل الكريمة، طلبت السيدة ميمونة أن تُدفن على مسيرة يوم خارج مكة، في نفس المكان والبقعة التي عسكر فيها الرسول ﷺ أثناء عودته إلى المدينة، والتي لقيته فيها لأول مرة. إن العالم يعرف قصصًا كثيرة عن الحب، منها الحقيقي والخيالي، ولكن لا شيء من بينها أكثر تحريكًا للقلب من هذه القصة.

بعد أن تمت هذه العُمرة التاريخية، انضم إلى الإسلام قائدان شهيران من قادة العدوّ، وأثبتا بعد ذلك أنهما قائدان فذّان من قادة الإسلام. كان أحدهما خالد بن الوليد رضي الله عنه الذي هزّت بطولته وعبقريته دعائم الإمبراطورية الرومانية، وانضمّت إلى الدولة الإسلامية تحت راية قيادته الدول المحيطة الواحدة تلو الأخرى. وكان القائد الثاني هو عمرو بن العاص رضي الله عنه الذي فتح مصر.

موقعة مؤتة

لدى عودته من العمرة، بدأ الرسول ﷺ يتلقى أخبارًا تقول إن القبائل المسيحية على حدود الشام تُعد للهجوم على المدينة بتأثير التحريض والإغواء من طرف اليهود والمشركين. فأرسل مجموعة من خمسة عشر رجلاً لتقصّي الحقيقة، فرأوا جيشًا يتجمع على حدود الشام. ولكنهم تأخروا بدلاً من الرجوع في الحال كي يقدّموا تقريرهم للرسول ﷺ. لقد دفعهم حماسهم إلى اتخاذ قرار متسرّع بالدعوة إلى

الإسلام وشرح حقائقه لهم فلعلهم يهتدون، ولكن نيّاتهم الحسنة أحدثت تأثيرًا معاكسًا لم يرغبوه ولم يتوقّعوه.

وإذا راجعنا الأحداث بتفكيرنا الحالي، نستطيع أن نرى أن أولئك الذين كانوا يخططون لغزو بلد الرسول ﷺ بتحريض من العدوّ، لم يكن من المتوقع منهم أن يتصرّفوا بأي أسلوب آخر. فبدلاً من الإنصات والاستماع للدعوة التي تُعرض عليهم، إذا بهم يتناولون أقواسهم ونشابهم، ويمطرون الوفد النبويّ بوابل من السهام. وصمد الوفد المكوّن من خمسة عشر رجلاً للسهام دون حركة، فقد تلقوا سهامًا على ما قدموه من حجج وبراهين، ومن ثم لم يتراجعوا. خمسة عشر وقفوا صامدين أمام الآلاف، وسقطوا جميعًا صرعَى.

وجهز الرسول ﷺ حملة لعقاب المعتدين على هذه القسوة والوحشية الطائشة، ولكنه في نفس الوقت تلقى أخبارًا تقول إن القوات التي كانت تتجمع محتشدة على الحدود قد تفرقت فأجّل خطته، غير أنه بعث برسالة إلى إمبراطور الروم (أو إلى زعيم قبيلة غسّان الذي كان يحكم بُصرى باسم الروم). ولعله في هذه الرسالة كتب يشكو من الاستعدادات التي شُوهدت على حدود الشام، ومن المذبحة الحمقاء الظالمة التي لقيَها الخمسة عشر مسلمًا الذين أرسلوا لمعرفة أخبار ما يحدث على الحدود.

وحمل الرسالة صحابي اسمه الحارث بن عُمير الأزدي، فعرض له في الطريق عند مؤتة.. شُرَحبيل بن عمر الزعيم الغسّاني، وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قِبَل قيصر.

سأله الزعيم الغسّاني شرحبيل: "هل أنت رسول محمد؟ لعلك تحمل رسالة منه".. وبمجرد أن أجاب الصحابي بالإيجاب قام الزعيم الغسّاني بالقبض عليه، وأوثقه ثم عذبه بالضرب المبرح إلى أن مات. ولعل هذا الزعيم الغسّاني كان هو قائد الجيش الذي لقي الجماعة المكونة من ١٥ مسلمًا، وقام بقتلهم، هؤلاء الذين لم يفعلوا شيئًا سوى أنهم حاولوا أن يبشروا بدينهم. إن حقيقة سؤاله للحارث عن احتمال حمله رسالة من الرسول ﷺ توضح أنه كان يخشى أن تبلغ شكوى الرسول ﷺ مسامع قيصر عن هجومهم وقتلهم الخمسة عشر مسلمًا.

كان خائفًا أن تتم محاسبته على ما حدث، وظن أن قتل حامل رسالة الرسول سيكون أمانًا بالنسبة إليه، ولكن توقعه لم يتحقق. فقد بلغت أخبار القتل الرسول ﷺ، فجهز جيشًا من ٣٠٠٠ مقاتل للانتقام من هذه الحادثة والتي سبقتها، وبعث بهم إلى الشام تحت إمرة مولاه زيد من حارثة، مملوكه الذي حرره، وعيّن الرسول ﷺ جعفر بن أبي طالب ليخلف زيدًا لو قتل، وعبد الله بن رواحة فيما لو قتل جعفر، وفوّض للمسلمين اختيار من يخلف عبد الله بن رواحة لو قتل.

وعلّق على ذلك رجل من اليهود كان حاضرًا فقال للرسول ﷺ: "يا أبا القاسم! لو كنت نبيًّا حقًّا فإن هؤلاء الثلاثة الذين سميتهم سيموتون فعلاً، لأن الله لابد أن يصدق ما يقول الرسول"، والتفت إلى زيد قائلاً: "خذها مني، لو كان محمد نبيًّا فلن تعود حيا". ولما كان زيد من المؤمنين المخلصين أجابه قائلاً: "إن محمدا رسول الله حقًّا، سواء عدتُ حيًّا أو لم أعد." (السيرة الحلبية ج٣ ص ٧٥)

في الصباح التالي بدأ الجيش المسلم رحلته الطويلة. وصحبهم الرسول ﷺ ورفاقه لبعض الطريق. ولم يحدث أبدًا أن خرجت حملة بهذه الأهمية والحجم بدون قيادة الرسول ﷺ نفسه، وبعد ما سار الرسول بعض الوقت ليوَدّع الحمْلة، أوصاهم وأمرهم ونصحهم عند ثنية الوداع التي تعَوّد أهل المدينة أن يُوَدّعوا عندها المسافرين إلى الشام من الأصدقاء والأقارب، فقال:

"أوصيكم بتقوى الله والعدل فيمن معكم من المسلمين، اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة ولا أعمَى ولا كبيرًا فانيًا ولا منعزلاً بصوْمعة، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجرة ولا تهدموا بناء". (السيرة الحلبية ج ٣)

بعد ذلك عاد الرسول ﷺ أدراجه وتقدم الجيش إلى الأمام. كان ذلك أول جيش يرسل للحرب ضد قوة مسيحية، وعندما بلغ المسلمون حدود الشام سمعوا أن قيصر نفسه مع مائة ألف من جنوده في الميدان، ومائة ألف آخرين مجنّدين من القبائل المسيحية العربية. ولما وجد المسلمون أنفسهم في مواجهة هذا العدو الهائل، فكّروا أن يتوقفوا في طريقهم ليرسلوا رسالة إلى الرسول ﷺ في المدينة ليرسل إليهم مددًا أو يرسل إليهم تعليمات جديدة.

وعندما اجتمع القادة للمشاورة، وقف عبد الله بن رواحة وقد امتلأ بشعلة من الحماس فقال: "يا قوم. والله إن التي تكرهون لَلّتي خرجتم تطلبون؛ الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة،

ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين؛ إما ظهور وإما شهادة".

وسمع الجيش ما قال ابن رواحة، وأحدث فيهم بالغ الأثر، واستقر رأيهم على ما دعاهم إليه. وتحرك الجيش إلى الأمام، وعندما رأوا الجيش الرومي يتقدم نحوهم انحاز المسلمون إلى مؤتة وعسكروا هناك وتعبأوا للقتال، وهناك التقى الفريقان في المعركة. ولقي زيد قائد المسلمين مصرعه سريعًا، وحمل الراية بعده ابن عم رسول الله ﷺ جعفر ابن أبي طالب فقاد الجيش. وعندما رأى ضغط العدو الهائل والمسلمين غير قادرين على التماسك بسبب قلة عددهم بشكل واضح، إذ ذاك ترجّل عن فرسه وعقرها، وكان هذا الفعل يعني أنه لن يفر أبدًا، وأنه قرر تفضيل الموت على الفرار، إن قطع أقدام الركوبة في عادة العرب يعني تجنب الهرب والهلع. وقُطعت يمناه وهو يقاتل، فأمسك الراية بيسراه فقطعت كذلك، فاحتضن الراية بعضديه وضمها إلى صدره، وسقط وهو يقاتل موفيًا بوعده، واستلم عبد الله بن رواحة الراية كما أمر الرسول ﷺ، وتولى القيادة فسقط هو أيضًا قتيلاً.

وكان أمْر الرسول ﷺ حينئذ أن يتشاور المسلمون معا ليختاروا قائدا لهم، ولكن الوقت لم يكن يسمح بهذا الاختيار. وكان خليقًا بالمسلمين أن ينهاروا إزاء الأعداد الهائلة للعدو، ولكن خالد بن الوليد قبل نصيحة صديق له فأخذ الراية وقاتل إلى المساء. وفي اليوم التالي نزل إلى الميدان ثانية مع قواته المجهدة المحدودة، وصنع حيلة حربية بتغيير الجناح الأيمن محل الأيسر، ووضع القلب في الخلف وجاء

بالقوات الخلفية إلى المواجهة، ورفع بعض الشعارات الحربية. وتصوّر العدوّ أن المسلمين قد جاءهم الإمدادات خلال الليل فداخلهم الخوف، وأخذ المسلمون خلال المعركة ينسحبون والعدوّ لا يلاحقهم خوفًا من المكيدة، وأنقذ خالد بقايا قواته وعاد إلى المدينة. وتلقّى الرسول ﷺ الأخبار عن طريق الوحي، فجمع المسلمين في المسجد. وعندما نهض يخطبهم كانت عيناه مبللتين بالدموع وهو يقول:

"أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب، ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم" (زاد المعاد ج١ والزرقاني).

وأصبح وصف الرسول ﷺ لخالد شائعًا مشهورًا، وأصبح يُدعى بعدها سيف الله، ودخل المدينة ليجد نفسه معروفًا بذلك.

كان خالد يُعَيّر بسبب تأخر إسلامه من المسلمين الآخرين، وتشاجر مرة مع عبد الرحمن بن عوف، فاشتكى عبد الرحمن إلى الرسول ﷺ فعنّف الرسول خالدًا وقال له: "يا خالد، أتسيء إلى رجل حضر بدرًا، والله لو أنفقت مثل أحُد ما بلغ ذلك مدّ عبد الرحمن ولا نصيفه". ورد خالد: "ولكنهم عيروني وكان لا بد أن أرد عليهم". عند ذلك التفت الرسول ﷺ إليهم قائلاً: "لا تعيروا خالدًا، إنه سيف من سيوف الله سلّه الله على الكافرين". وتحققت كلمات الرسول ﷺ حرفيًا بعد سنوات قلائل.

عند عودة خالد إلى المدينة مع الجيش المسلم، قام بعض المسلمين بوصف انسحابهم على أنه فرار وضعف في الإيمان. كان النقد الشائع

يقوم على أساس أن واجبهم هو الموت مقاتلين. وعنّف الرسول المنتقدين، ونفَى عن الجنود أن يكون إيمانهم ضعيفًا، فقد كانوا جنودًا ينسحبون ليتحيّزوا إلى فئة ليعاودوا الهجوم. وقال الرسول ﷺ عن نفسه: "أنا فئة كل مسلم".

كان لهذه الكلمات معنى أعمق مما يبدو على السطح، فلقد كانت نبوءة بما سيحدث من القتال في الشام بعد ذلك.

مسير رسول الله إلى مكة في عشرة آلاف من أتباعه

في العام الثامن للهجرة في شهر رمضان (ديسمبر/كانون الأول سنة ٦٢٩ميلادية) خرج الرسول ﷺ في طريقه إلى آخر حملة غرست أعمدة الإسلام عميقًا في أرض الجزيرة العربية.

في الحديْبية تم الاتفاق بين الرسول ﷺ والمشركين على أن يُسمح للقبائل العربية الأخرى بالانضمام لحلف يضمهم مع المشركين أو مع المسلمين على السواء، واتُّفق أيضًا على إيقاف الحرب عشر سنوات بين الطرفين ما لم ينقض أحدهما أو المتحالفون معه الاتفاق بالهجوم على الطرف الآخر، وفي إطار هذا الاتفاق دخلت بنو بكر في حلف مع مكة، ودخلت خزاعة في حلف مع الرسول ﷺ.

ولما كان احترام المشركين العرب للمعاهدات ضئيلاً، خاصة معاهداتهم مع المسلمين، حدث أن كان بين بني بكر وخزاعة ثارات قديمة، فاستشارت بنو بكر بعض أهل مكة أن يعينوهم لأخذ ثأرهم من خزاعة، وبرّروا لهم طلبهم بأن خزاعة قد تخلت عن حذرها بعد

توقيع معاهدة الحديبية وأحسّت بالأمن بعد حلفهم مع الرسول، فهذا هو الوقت الأنسب للانتقام منهم في مذبحة مريعة. ووافقهم أهل مكة، وانتهزوا فرصة الظلام ليشتركوا في هجوم ليلي، ولقيَ كثير من رجال خزاعة مصرعهم، فأرسلت خزاعة وفدًا من أربعين رجلاً على جمال سريعة ليخبروا الرسول ﷺ بخيانة قريش للاتفاق المعقود معه، وليناشدوه النصر على مكة انتقامًا لهذه المذبحة.

والتقى الوفد مع الرسول ﷺ، وأخبرهم بجلاء قاطع أنه يعتبر مصابهم هو مصابه الخاص قائلاً للشاعر الذي كان في الوفد واستغاثه شعرا: "نُصرت ياعمرو بن سالم، وأشار إلى سحابة تتجمع في السماء وقال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب". وخافت قريش العواقب، وأزعجها خبر وفد خزاعة إلى المدينة، فأرسلوا أبا سفيان سريعًا لتجديد الصلح منعًا لهجوم المسلمين. وبلغ أبو سفيان المدينة، وبدأ يبرر طلبه بأنه لم يكن موجودًا في عهد الحديبية، ولذا يلزم توقيع عقد سلام جديد. ورأى الرسول ﷺ أن ليس من الحكمة قبول العذر. واهتاج أبو سفيان وذهب إلى المسجد وأعلن: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، ولم يفهم سكان المدينة معنى لقوله، فضحكوا منه. (الزرقاني)

وقال الرسول ﷺ لأبي سفيان إن كلامه من طرف واحد، وإن الطرف الآخر لم يوافق عليه. وأرسل الرسول ﷺ إخطارًا إلى كل القبائل، ولما تأكد له أنها على أهبة الاستعداد، أمر المسلمين أن يقوموا بتسليح أنفسهم والاستعداد.

وفي أول يناير/كانون الثاني بدأ زحف جيش المسلمين نحو مكة، وعند محطات مختلفة على الطريق انضمت إليه القبائل المسلمة الأخرى. وعندما دخل الجيش بريّة فاران بعد انقضاء عدة أيام قلائل، كان عدد المسلمين هو نفسه التي تنبأ به النبي سليمان من قبل، بعد أن تضخم حتى بلغ عشرة آلاف. وعندما تحرك هذا الجيش نحو مكة بدا الصمت المخيّم على كل مكان نذيرًا بالويل والثبور لأهل مكة. فأقنعوا أبا سفيان بالخروج مرة أخرى ليتبيّن نيّات المسلمين، فخرج ليجد كل الفلاة وقد أضاءها نيران المعسكرات على مسيرة أقل من يوم من مكة. كان الرسول ﷺ قد أمر بإيقاد النار أمام كل خيْمة، فكانت تلك النيران ذات لهب مخيف في ظلام الليل وسكونه.

وسأل أبو سفيان أصحابه: "ماذا يمكن أن يكون هذا؟ أهذا جيش هبط من السماوات؟ أنا لا أعرف جيشًا عربيًا بهذه الضخامة". وذكر أصحابه أسماء بعض القبائل، ومع كل اسم كان أبو سفيان يقول إن تلك القبيلة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

وبينما أبو سفيان ورفاقه يتأملون الأمر إذ صاح به صوت في الظلام:

"أبا حنظلة". (حنظلة كان اسم ولد لأبي سفيان وكان يُكنى به).

"العباس؟ أأنت هنا"؟ هكذا رد أبو سفيان وقد عرف الصوت.

"نعم"، رد العباس، "إنه جيش الرسول جاءكم بما لا قِبَل لكم به".

كان العباس وأبو سفيان صديقين قديمين، وأصرّ العباس أن يحمل أبا سفيان على بغلته معه ليذهبا إلى الرسول ﷺ. وأمسك بيدي أبي

سفيان وشده وجعله يركب الدابة، ثم همز البغلة التي انطلقت مسرعة لتصل إلى معسكر الرسول ﷺ. كان العباس يخشى أن يسقط عمر رضي الله عنه على أبي سفيان ويقتله، فقد كان عمر حارسًا لخيمة الرسول ﷺ، ولكنه ﷺ على سبيل الاحتياط كان قد أعطى أمره المعلن لكل من يلقى أبا سفيان ألا يحاول قتله. وأثّرت هذه الأحداث في نفس أبي سفيان بعمق شديد، لقد هزّته رفعة الشأن التي نال منها الإسلام حظًا عظيمًا. فها هنا كان الرجل الذي نُفي من مكة ليس معه إلا صاحب واحد. لقد مرّت سبع سنوات صعبة منذ ذلك اليوم، وها هو الآن يدق أبواب مكة مع عشرة آلاف من أتباعه المخلصين.

لقد انقلبت المناضد تمامًا، فالرسول الذي خرج من مكة منذ سنوات سبع، هاربًا بدينه، قد عاد إلى مكة، وتقف أمامه مكة عاجزة كل العجز عن أن تقاوم عودته.

فتح مكة

ولعل أبا سفيان كان يتفكر بعجب: أليس هذا التغيير مذهلاً، إذ تم في سنوات سبع ليس إلا؟ وماذا عليه الآن أن يصنع كقائد لمكة؟ أيقاوم.. أم أنّ عليه الاستسلام؟ وأزعجته هذه الخواطر حتى بدا للناظر إليه ما يعانيه من دهشة وذهول.

وشاهد الرسول ﷺ هذا القائد المضطرب، فأمر العباس أن يذهب به وأن يستضيفه الليلة على وعد برؤيته في الغد، فأمضى أبو سفيان ليلته مع العباس. وفي الصباح استدعاهما رسول الله، وكان ذلك في

وقت صلاة الفجر، وفوجئ أبو سفيان بفوْرة النشاط والتحرّكات في تلك الساعة المبكرة، فلم يكن من عادته هو ولا من عادة قومه أن يكونوا يقظين في هذا الصباح الباكر كما يفعل المسلمون بعد أن أصبحوا خاضعين لنظام الإسلام، ورأى المسلمين الذين هم في المعسكر جميعًا وقد أخذوا يتجهّزون لصلاتهم الصباحية، بعضهم يروح ويجيء بحثًا عن الماء للوضوء، والآخرون يشرفون على صف صفوف العابدين من أجل الصلاة. ولم يستطع أبو سفيان أن يستوْعب فهم هذه الحيوية الباكرة في الصباح، وخطر بباله خاطر مخيف؛ هل كانت هذه خطة جديدة لإدخال الرعب في قلبه؟

وسأل في ذهول وقلق بالغين: "ماذا يفعل كل هؤلاء"؟

وأجاب العباس: "لا شيء يدعو إلى الخوف، إنهم يستعدّون للصلاة ليس إلا".

ورأى أبو سفيان آلاف المسلمين وقد اصطفوا خلف رسول الله، يقتدون به ويفعلون مثلما يفعل، ركوعًا وسجودًا وقيامًا، وهكذا.

كان العباس في نوبة حراسته، لذلك كان حرًّا يمكنه أن يصحب أبا سفيان، وأن يبادله الحوار. وسأل أبو سفيان: "ماذا هم فاعلون الآن"؟

وأجابه العباس: "كل ما يفعله رسول الله يفعله الباقون مثله. ما ظنك بهذا؟ إنهم يطيعون كل ما يأمرهم به لتوهم، حتى لو أمرهم بترك طعامهم وشرابهم، فإنهم لفورهم يطيعون".

وأجاب أبو سفيان: "حقًّا! لقد رأيتُ عروشًا عظيمة، لقد رأيتُ بلاط كسرى وبلاط قيصر، ولكني لم أر شعبًا يحب قائده ويخلص له كما يفعل المسلمون لنبيّهم". (السيرة الحلبية ج٢ ص٩٠)

ومضى أبو سفيان يتساءل، وقد ملأه الخوف وتنازعه الإحساس بالذنب لكل ما حدث، وأفزعته مشاعر الخوف على ما يمكن أن يحدث لقومه وأهله في مكة، فسأل عما إذا كان العباس محجمًا عن طلب العفو أو المغفرة لقومه، يعني بهم أهل مكة؟؟

وانتهت صلاة الفجر، وقاده العباس إلى الرسول ﷺ.

وسأل رسول الله أبا سفيان: "ويحك يا أبا سفيان. ألم يأْن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله"؟ وأجابه أبو سفيان: "بأبي أنت وأمي. ما أحْلمك وأكْرمك وأوْصلك، لقد ظننتُ أن لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى عني شيئًا بعد".

"ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله"؟

"بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأوصلك وأكرمك، أمّا هذه ففي النفس منها شيء".

وبينما كان أبو سفيان في تردده في الاعتراف برسول الله كرسول لرب العالمين، دخل في الإسلام اثنان من أصحاب أبي سفيان الذين رافقوه في مسيرته من مكة للاستطلاع، كان أحدهما حكيم بن حزام. ولم يلبث أبو سفيان بعدها إلا قليلاً ثم دخل هو أيضًا في دين الإسلام، لكن إذعانه الداخلي تأخر إلى أن تم فتح مكة.

وسأل حكيم بن حزام الرسول ﷺ عما إذا كان المسلمون عازمين على قتل ذويهم في مكة؟ فأجابه بأنهم كانوا قساة على المسلمين، وأثبتوا أنهم لا عهد لهم، ونقضوا اتفاق السلام الذي عقدوه في الحديبية، وهاجموا خزاعة بوحشية، واستحلوا القتل في الحرم الذي عظّم الله حرمته. فأجاب حكيم بن حزام: إنه لَحَقٌ كل ما قاله، فقد فعل القوم كل ذلك تمامًا. واقترح عليه أن يغزو هوازن بدلاً من مسيره إلى مكة.

وأجابه الرسول بما يفيد أن هوازن كذلك كانوا قساة وهمجيين، وأنه يأمل أن يمكنه الله تعالى من تحقيق أهداف ثلاثة: فتح مكة، وإشاعة الإسلام، وهزيمة هوازن.

إلى هذا الحد كان أبو سفيان جالسًا ينصت، وحينئذ سأل أبو سفيان رسول الله: "إذا لم تسل مكة سيفًا فهل ينالون السلام"؟

وأجابه الرسول ﷺ بالإيجاب، فمن أغلق عليه بابه فهو آمن. وهنا تدخل العباس قائلاً: "يا رسول الله. إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا".

قال: "نعم. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن".

وبعد إعلان هذه الكلمات نادى الرسول ﷺ أبا رويحة وسلمه راية الإسلام، وكان أبو رويحة الأنصاري قد تآخى مع بلال رضي الله عنه، ذلك

العبد الحبشي الذي صار ما صار. وقال الرسول ﷺ وهو يسلمه الراية: "ومن قام تحت هذه الراية فهو آمن".

وفي نفس الوقت وجّه الرسول أمره إلى بلال أن يمضى أمام أبي رويحة مناديًا لكل من يعنيه السلام أن هناك سلامًا تحت تلك الراية التي يحملها أبو رويحة.

رسول الله ﷺ يدخل مكة

كان كل شيء يمضي في ترتيب حكيم. عندما كان المسلمون يعذبون في مكة، كان بلال هدفًا سهلاً لهذا العذاب، فكان يُربط بحبل في قدميه ويُجَرّ في طرقات البلدة. لم تعط مكة سلامًا لبلال، وكل ما ناله منها هو الآلام البدنية والمهانة والنكران، ولنا أن نتخيل مدى الرغبة في الانتقام التي كان بلال يحسّها تملأ قلبه في يوم عودته ذاك إلى مكة حُرًّا عزيزًا.

وكان من الضروري أن ينال بلال فرصة ليثأر لنفسه من القسوة الوحشية التي ذاقها في مكة، ولكن في الحدود التي أحاط بها الإسلام رغبة الانتقام هذه. فلم يسمح له الرسول بسل سيفه وضرب أعناق الذين اضطهدوه من قبل، فلم يكن ذلك من الإسلام. ولكنه بدلاً من ذلك، أعطى الراية، راية الإسلام، إلى أخي بلال، وكلف بلالاً بمهمة عرض السلام على معذبيه السابقين تحت الراية التي يحملها أخوه. فما أروع ذلك الانتقام وما أجمله! ولنتخيّل صورة بلال يمشي بين يدي أخيه وهو يرفع صوته مناديًا أعداءه إلى السلام، وإزاء ذلك لم تكن

هناك فرصة لرغبته في الانتقام أن تدوم طويلاً، ولا بد أنها ذابت شيئًا فشيئًا وهو يتقدّم مناديًا أهل مكة إلى السلام تحت الراية التي يرفعها أخوه عالية خفّاقة.

وأمر الرسول ﷺ العباس أن يأخذ أبا سفيان وصحبه إلى قمة مناسبة لاستعراض جيش الإسلام، ورؤية سلوكهم وشمائلهم. وفعل العباس ذلك، ومن زاوية مناسبة أمكن لأبي سفيان وصديقيه أن يروا القبائل العربية وهي تمر عليهم وتمضي عنهم، ومعها يمضي ذلك العهد الذي كان فيه أهل مكة يجمعون ويحشدون للقضاء على الإسلام معتمدين على تلك القبائل نفسها التي تمر الآن جنودًا مجنّده للإيمان بدلاً من حشدها جنودًا للكفر، وإنهم الآن ليرفعون شعارات الإسلام لا شعارات أيام وثنيتهم، إنهم ليزحفون في تشكيلات عسكرية ليضعوا حياتهم فداء للرسول ﷺ لا لكي يقضوا على حياته، يزحفون لا لسفك دمه بل لسفك دمائهم دفاعًا عنه. لم يكن طموحهم في هذا اليوم يرنو إلى مقاومة الرسالة النبوية والحفاظ على وهم قومي أجوف، يتصوّر رسالة الرسول ﷺ تهديدًا له وخطرًا مضادًا للقومية، بل كان طموحهم إلى حمل رسالة النور هذه إلى كل أنحاء العالم، تلك الرسالة التي طالما قاوموها، صار رجاؤهم الآن هو تأسيس وحدة إنسانية وتضامن وأخوّة تضم بني الإنسان.

وتمر الجموع والصفوف واحدًا بعد الآخر، حتى لاحت جموع قبيلة "أشجع" لعيون أبي سفيان، وكان يمكن للرائي أن يلمح في وجوههم

آثار الإخلاص والتضحية بالذات والحماس الفائق، ولذلك كان هـــذا الحماس محسوسًا في نبرة تغنّيهم وإنشادهم لشعارات الإسلام.

ويسأل أبو سفيان: "من يكونون هؤلاء"؟

ويأتيه الجواب: "هذه قبيلة أشجع".

وبدأ أبو سفيان مندهشًا وهو يقول: "لم يكن أحد أعدَى لمحمد من هؤلاء".

وردّ العباس عليه بأن الفضل لله في ذلك، لقد غير الله قلوب العدوّ عندما رآهم مستعدين لذلك ومؤهلين للتغيير.

وأخيرًا، لاح مشهد الرســول ﷺ في كتيبتــه الخضــراء، محاطــا بالمهاجرين والأنصار مصفوفين قريبًا من ألفي مدرّع، والفاروق عمر ﷺ يوجّه خطاهم نحو مكة. كان هذا المشهد هو الأكثر تأثيرًا بين كل المشاهد. كان إخلاص هؤلاء المسلمين وتصميمهم وحماسهم يبــدو وقد فاق كل الحدود، فائضًا فائرًا يتدفّق غامرًا، وعندما وقعت عـــين أبي سفيان عليهم ملأه الخضوع والخشوع لفوْره، ولم يملك نفسه أن يسأل العباس قائلاً: "من كان هؤلاء"؟

ورد العباس: "هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار".

وقال أبو سفيان: "ما لأحد بهؤلاء قِبَــلٌ ولا طاقــة". ثم توجّــه بالخطاب إلى العباس خاصة وقال: "لقد أصبح مُلْك ابن أخيك اليــوم عظيمًا".

ورد العباس: "يا أبا سفيان، إنها النبوّة، لا الْمُلْك".

قال أبو سفيان: "نعم نعم. إنها النبوّة لا الْمُلك".

وخلال مرور جيش الإسلام على أبي سفيان، كانت راية الأنصار مع سعد بن عُبادة، فوقعت عيناه على أبي سفيان، ولم يستطع أن يقاوم كلمة اختلجت في نفسه فقال: "اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشًا". ولدى مرور الرسول ﷺ، رفع أبو سفيان صوته مخاطبًا الرسول قائلاً: "يا رسول الله! ألم تسمع ما قال سعد"؟ قال: "وما قال"؟ فقال: "قال كذا وكذا". فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف: "يا رسول الله، ما نأمن أن يكون له في قريش صوْلة". فقال رسول الله بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشًا. وهكذا عبر أبو سفيان للرسول ﷺ عن مخاوفه أن يسمح بمذبحة في عشيرته حسبما هدّد سعد وصحبه، دون أن يراعوا حرمة مكة، ورغِب في عفو الرسول وغفرانه، وما عُرف عنه من احترامه للإنسانية.

ولم يذهب رجاء أبي سفيان أدراج الرياح. إن هؤلاء المسلمين المخلصين الذين تعَوّدوا على الضرب والإهانة في طرقات مكة، وأُرغموا بذلك على ترك ممتلكاتهم ومنازلهم في تلك البلدة، بدأت تخالجهم مشاعر الرحمة نحو معذبيهم القدامى، حتى إنهم كانوا يخشون أن تكون للقصص الرهيبة التي رواها المهاجرون للأنصار عن التعذيب الوحشي وعن الاضطهاد الذي ذاقوه على يد أهل مكة، آثارًا بالغة باقية مع الزمن بحيث تدفعهم إلى الانتقام من أهل مكة على ما اقترفت أيديهم، وهذا ما عبر عنه سعد بن عبادة. وعبّروا عن مخاوفهم لرسول الله الذي تفهّم الموقف حالاً، والتفت إلى أبي سفيان ليبين له خطأ

سعد ويصحح له الصورة المتوقعة، فلن يكون هذا يوم الانتقام، بل سيكون يوم الغفران. وأرسل إلى سعد يأمره أن يسلم راية الأنصار إلى ابنه قيس بن سعد، وهكذا انتقلت قيادة الأنصار من سعد إلى قيس. لقد كان قرارًا سديدًا وخطوة حكيمة، هدّأت من روْع أهل مكة، وفي نفس الوقت لم تخرج القيادة من الأنصار، فلقد كان القائد هو ابنه، وكان شابا نقيًّا ورعًا يحظى بالثقة الكاملة للرسول ﷺ. ويمكن تبين مدَى تقواه من حادثة متأخرة قبل موته، وكان يستقبل عُوّاده من الأصدقاء على فراش مرضه الذي مات فيه. ولاحظ أن بعضهم لم يأت ليعوده، ولم يفهم السبب، وسأل عنهم فقيل له: "إنك تداين الناس وبعضهم يخشى المطالبة إذا جاء يعودك". فقال: "إذن فأنا السبب في بعدهم عني، أعلنوا على الملأ أن كل من يدين لقيس بديْن فهو له، ولا ديْن لي على أحد". وعقب هذا الإعلان تلقى قيس عددًا هائلاً من الزيارات والدعاء في أيامه الأخيرة، حتى انهارت درجات السلم المؤدّية لبابه من كثرة الزوّار.

عندما اكتمل استعراض الجيش المسلم طلب العباس من أبي سفيان أن يسرع إلى مكة ليُعْلم أهل مكة بقدوم الرسول ﷺ، ويشرح لهم طريقة التأمين الذاتي لكل منهم. وبلغ أبو سفيان مكة فعلاً وبدأ يُعلن شروط السلام لبلدته. ولكن هند زوجته لقيته، وهي المشهورة بعدائها الشديد للمسلمين، وبكفرها العنيد. غير أنها كانت شجاعة، فأمسكت بشارب زوجها وقالت: "اقتلوا الحميت الدسم الأحمش الساقين، قبح من طليعة قوم". وهكذا اتهمته بالعار، ونادت الناس

للثورة عليه قائلة إنه بدلاً من تحريك بلده للدفاع عن شرف بلـــدهم والتضحية بأرواحهم في سبيلها، فقد جاء يدعوهم للسلام.

ولكن أبا سفيان كان يرَى الحقيقة، ويرى زوجه تتصرف بحمـــق، ويرى أن هذا الزمن الذي تعيش فيه زوجه قـــد ولى، وأن عليهـــا أن تذهب لمنْزلها لتقبع خلف بابه المغلق. وصاح في قومه: "لا تغـــرّنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به". وقال لهم إنـــه شاهد الجيش الذي جاء إلى مكة، وعرف نوعية مقاتليـــه، وأن أهـــل الجزيرة العربية بأكلمها لا يستطيعون أن يصمدوا أمامه. ثم أخذ يشرح لهم شروط السلام التي قررها الرسول ﷺ، والتي تحدّدت حدودها في الإعلان النبوي عن الأماكن الآمنة وكيفيّة نوال السلامة والأمن.

ولقد استثنى إعلان الأمان أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، كانـــت الأعمال التي اقترفوها بشعة للغاية. لم تكن جرائمهم أهم كفـــروا، أو أهم شاركوا في حرب ضد الإسلام، بل كانت أعمالاً مجرمة، بربرية لا إنسانية، لا يمكن تركها تمر دون عقاب. ولكن في النهاية، اقتصـــر الأمر على أربعة أشخاص فقط لقوا عقاب الموت.

كان رسول الله قد أمر خالدًا بن الوليد ألا يسمح بقتـــال إلا إذا قوتل هو أولاً، ولم يكن إعلان السلام وشروطه قد بلغت هذا الجـــزء من المدينة الذي دخل منه خالد، واحتشد أهل هذا الجانب من مكة، وتحدّوا خالدًا ودعوه إلى القتال، وحدثت معركة سقط فيها اثنا عشر رجلاً أو ثلاثة عشر. كان خالد رجلاً ذا طبع حاد باتر، وخشي بعض الناس مغبّة ذلك، فأسرع بالخبر لرسول الله ليوقفه، فأرسل الرسول ﷺ